الباب الثالث

دور العقيدة الإسلامية في بناء الحضارة

تكفل القرآن الكريم والسنة النبوية بشرح العقيدة وما يحتاج إليه المسلم من العلم بعالم الغيب بأدلة وبراهين مقنعة، ثم أمر الإسلام بأن لا يخوض المسلم في عالم ما وراء الطبيعة الميتافيزيقيا بل يشغل عقله وفكره بعالم المادة والطبيعة لإنتاج العمل الصالح وخدمة الإنسان وتعمير الكون في ضوء منهج الصلاح، لذلك اهتدى المسلمون إلى المنهج التجريبي الذي أخذه الغرب فيما بعد وبنى عليه حضارته القوية لذلك تمتاز العقيدة الإسلامية بهذه المميزات التالية:

1- وضوح الرؤية لكل ما يحتاج إليه الإنسان.

2- الطمئنينة والسكينة والقناعة من خلال الإيمان بالقضاء والقدر.

3- فهم الأشياء على حقيقتها.

4- الصبر والجرأة والشجاعة في مواجهة الشدائد وعدم الانهيار أمام المصائب مهما كانت كبيرة وعدم الطغيان والتجبر والتكبر مهما أقبلت الدنيا على الإنسان كما قال تعالى: لِكَيْلا

تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) :عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر فكان خيراً له، وليس ذلك لغير المؤمن.

5- الإيمان بالمساواة بين البشر وتحقيق العدل والتكافل الاجتماعي، لأن ربهم واحد فهو خلقهم، من أصل واحد، وأوجب عليهم ما يحقق العدل والخير للجميع.

دور الحضارة الإسلامية في الحضارات اللاحقة

لقد أوضح الفيلسوف المعروف جارودي دور الحضارة الإسلامية في الحضارات اللاحقة فذكر أنه عندما رحل الراهب الفرنسي جربير للدراسة في جامعة قرطبة قفل راجعاً وقد بلغ من العلم مبلغاً صار يتهم بأنه قد فاق الشيطان، ثم أصبح بعدئذ بابا باسم سلفستر الثاني وأن الحضارة الغربية تدين للعلوم الإسلامية في مجالات الطب والحساب والجبر، والبصريات، والفلسفة، والمنطق، وغيرها، فقد كانت جامعات أوروبا في فرنسا وبريطانيا تدرس كتب الرازي، وابن رشد، وابن الهيثم، وغيرهم في القرن السادس عشر في فرنسا، ومنتصف القرن التاسع عشر في انجلترا ولم تقف استفادة الغرب من المسلمين عند الجانب

النظري بل استفاد من المراصد والخرائط، واكتشاف الأرقام العربية، والصفر والمواد الكيماوية والصيدلة والصناعية ونحوها وفي مجال العلوم الإنسانية يتحدث جارودي عن ابن خلدون بأنه مخترع مفهوم علمي عن التاريخ وعن علم الاجتماع، وأن هذه الشخصية لا يمكن أن تظهر من فراغ، بل تدل على نمو الفكر الإسلامي في عصره في مجال العلوم الاجتماعية ويذكر جارودي أن العلوم تجمدت في أوروبا، لأن الكنيسة أبدت ريبة تجاه الطبيعة زاعمة أنها تبعد عن الإله، وهكذا استمرت تجارب العلوم عبر تاريخها، بينما انطلق العلم في الإسلام من مبدأ الوحدانية حيث لا مجال للتفريق بين الطبيعة وعلم الكلام والفلسفة والفنون المختلفة، وبين رسالة المسجد والمدرسة، وكانت جامعات القرويين بفاس، والزيتونة بتونس، والأزهر بالقاهرة، وسمرقند، وقرطبة، معالم إشعاع ليست للعالم الإسلامي بل لأوروبا التي تأثرت بها وأسست كليات الطب في سالونيك بايطاليا، ومومباليه بفرنسا على غرار كليات الطب الإسلامية.

وفي مجال الرياضيات كانت مساهمة المسلمين عظيمة في نهضة أوروبا وساعدت على تطوير الحساب والجبر، ولا أدل على ذلك من الأعداد التالية) 4444 (تكتب على هذا النحو) F I L K S S S M M M M (وكان من الصعوبة بمكان إجراء أية عملية حسابية أو

جبرية مع هذه الرموز.

ولم يكن حظ علم الاجتماع أقل شأناً من بقية العلوم، فكان لابن خلدون دور كبير في بلورة الأسس العلمية له، كما تفوق علماء المسلمين على علماء الفلك اليونانيين سواء في مجال الملاحظة أو القياسات كما عملوا على تطوير الجغرافيا والرياضايات .

العقيدة وبناء المجتمع الفاضل

وإذا أردنا أن نؤسس مجتمعاً نظيفاً تسوده العدالة، وتحكمه الفضيلة ، وتختفي منه الجريمة، وتظلله الطمئنينة، ويتعاون أفراده على كل ما فيه خيره وصلاحه ينبغي أن نؤسسه على عقيدة صحيحة، تكون دعامة لذلك البناء، وليست العقيدة الصحيحة ضرورية لبناء المجتمع الفاضل فحسب، بل ضرورية كذلك لبقائه سليماً قوياً مترابطاً، لا تفسده المغريات والفتن، ولا تفت في عضده العقبات والمعوقات.

والإسلام العظيم منهج رباني متكامل، تقوم شرائعه وأحكامه على العقيدة الصحيحة، وتدور كلها حولها، وترجع في مسيرتها إليها، ولا يمكن أن يستقيم منها تشريع أو حكم، إلا إذا كان مؤسساً على العقيدة الصحيحة ، فهي التي تعطيه صفة الإلزام، وتجعله واجب الطاعة والاحترام.

لذلك كان الإيمان بالله وتوحيده أول ما دعا إليه الرسل، وأول ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكث ثلاثة عشر عاماً، لا هم له إلا تأسيس العقيدة والدعوة إليها، وتثبيتها في قلوب أصحابه، فلما هاجر إلى المدينة، ونـزلت آيات التشريع والأحكام وجدت القلوب المؤمنة مستعدة لتقبلها والإذعان له وعلى هذا الأساس ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم مجتمعاً فاضلاً، وكون أمة إسلامية استطاعت بعد ذلك أن تسود العالم، وأن تجعل كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

البناء الفكري

تحرير فكر الإنسان

ترتكز نظرة العقيدة الإسلامية على كون الإنسان موجوداً مكرَّماً : (ولقدْ كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البرِّ والبحر ورزقناهم من الطَّيبات وفضَّلناهُم على كثيرٍ ممَّن خلقنا تفضيلاً) [1] فهو خليفة اللّه في الأرض ، يمتلك العوامل التي تؤهّله للسمّو والارتفاع إلى مراتب عالية : (وإذ قال ربُّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الارض خليفةً قالوا أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونُقدسُ لك قال إني أعلمُ ما لا تعلمون) [2]كما أن بإمكان الإنسان أن ينحطّ ويتسافل حتى يصل إلى مرتبة الحيوان :(... أخلدَ إلى الأرض واتَّبعَ هواه فمثلهُ كمثل الكلبِ إن

تحمل عليهِ يلهث أو تتركه يلهث ..) [٣]ثم يتسافل أكثر فأكثر حتى يصل إلى مرتبة الجماد: (ثمَّ قست قلوبُكُم من بعدِ ذلك فهي كالحجارةِ أو أشدُّ قسوة ..) [١] وعليه فالعقيدة الإسلامية تراعي في الانسان عوامل القوة والضعف معاً ، فقد وُصف الإنسان في الكتاب الكريم بأنّه خُلِق ضعيفاً هلوعاً عجولاً ، وأنه يطغى ، وأنّه كان ظلوماً جهولاً فالعقيدة الإسلامية إذن تعتبر عوامل الضعف في الإنسان حالة طبيعية ناتجة عن تكوينه البشري ، ولم ترها معقدة بالمستوى الذي يفقد الإنسان معها قدرته على البناء والحركة ، وحرية الاختيار.

الخطيئة أمرٌ طارئ

من ناحية أُخرى فالعقيدة الإسلامية تعتبر الخطيئة أمراً طارئاً على الإنسان ، وليس ذاتياً أصيلاً ، وعليه فحين يسقط الإنسان في مهاوي الخطيئة ، لا يتحول إلى شيطان تمنعه شيطنته من العودة إلى رحاب الإنسانية ، بل يبقى إنساناً مخطئاً يمكن أن يسعى إلى تصحيح خطئه ، والنهوض من كبوته وهذا هو سر عظمة النظرة الإسلامية إلى الإنسان ، فهي لا تجعله تحت رحمة الشعور بخطيئة أصيلة مفروضة عليه ، كما تفعل النصرانية بل تسعى إلى انتشال الإنسان من وحل الخطيئة وإشعاره بقدرته على الارتقاء ، وتذكيره الدائم بعفو اللّه ورحمته الواسعة ، وعدم

اليأس منها ولا يوجد في الإسلام كرسي للاعتراف كما في النصرانية ، بل يسعى أئمة الدين وعلماؤه إلى ستر عيوب الناس وذنوبهم كلما أمكن ذلك ، لأن اللّه تعالى يحبَّ الستر عن الاصبغ بن نباتة قال : أتى رجل أمير المؤمنين عليه‌السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّي زنيت فطهّرني ، فأعرض أمير المؤمنين عليه‌السلام بوجهه عنه ، ثم قال له : اجلس ، فأقبل عليّ عليه‌السلام على القوم ، فقال : أيعجز أحدكم إذا قارف هذه السيئة أن يستر على نفسه كما ستر اللّه عليه.

الإنسان موجود مكرَّم

ومن جانب آخر تحاول العقيدة إشعار الإنسان على الدَّوام بأنّه موجود مكرَّم ، له موقعه المهمّ في هذا الكون ، من خلال وظيفة الاستخلاف فيه وما عليه إلاّ أن يقوم بأداء وظيفة الاستخلاف هذه على أحسن وجه ، وأن يشكر خالقه على هذا التكريم والتمكين والهداية إلى الدين الحق.

سأل رجلٌ أمير المؤمنين عليه‌السلام عن حبه للقاء اللّه تعالى ، فقال : بماذا أحببت لقاءه؟ قال عليه‌السلام : لمَّا رأيته قد اختار لي دين ملائكته ورسله وأنبيائه ، علمت أنَّ الذي أكرمني بهذا لن ينساني ، فأحببت لقاءه.

معالم التحرير

ولقد أسهمت العقيدة إسهاماً فعالاً في تحرير الإنسان على محاور عدّة ، منها : ـ

أولاً : ـ حرَّرت الإنسان من الاستبداد السياسي ، فليس في الإسلام استبداد إنسان بآخر ، أو تسخير طبقة أو قومية لأُخرى (فقد كان الدين ، على امتداد التاريخ الإسلامي ، من أبرز العوامل لظهور حركات التحرر ومهما تكن نظرة الباحث تجاه الدين فلا يستطيع إبعاد العامل الديني وأثره في بناء الوعي الثوري خلال هذه الفترة من تاريخ الاسلام.

فلم تكن ثورة أبي ذر رحمه الله وثورة الحسين عليه السلام إلاّ منطلقا لاتّجاه واع لتصحيح الانحراف في تاريخ الإسلام ورغم كل الانحراف الذي تعرض له المسلمون على امتداد تاريخهم الطويل لم ينعدم في فترة من هذا التاريخ اتجاه ثوري قوي في إعادة الإسلام إلى مجري الحياة والقضاء على الظلم والاستغلال واستعادة حقوق الانسان المسلم وكرامته كما حرَّرت العقيدة الاسلامية الانسان من عادة تأليه البشر كعبادة الملوك والأُسر الحاكمة ، وهي عادة كانت سائدة عند بعض الأُمم القديمة كالمصريين القدماء ، وقد أبطل الإسلام نظريات التمييز بين إنسان وآخر ، سواء على أساس الجنس أو اللغة أو اللّون أو المال أو

القوة ، ومقياس التفاضل ينحصر في أمور معنوية هي التقوى والفضيلة ، قال تعالى : (يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلقناكُم مِن ذكرٍ وأُنثى وجَعلنَاكُم شُعُوباً وقبائل لِتعارفُوا إنَّ أكرمكُم عندَ اللّه أتقاكُم إنَّ اللّه عَليمٌ خبيرٌ) فالإسلام يحتل الأسبقية بإعلان مبدأ الحرية قبل الثورة الفرنسية بأكثر من عشرة قرون قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبةٍ له : أيُّها الناس إنّ آدم لم يلد عبداً ولا أمة ، والنّاس كلّهم أحرار إلاّ أنّ الإسلام لم يجعل هذه الحرية الممنوحة للإنسان مطلقة ، بحيث يُطلق العنان للإنسان ليفعل ما يشاء ، بل جعل للحرية ضوابط وكوابح حتى لا تؤدي إلى فوضى.

ومن هنا يبرز الفرق الشاسع بين العقيدة الإسلامية التي تربط الحرية الإنسانية بالعبودية للّه تعالى والخضوع الواعي الطوعي لسلطته ، وبين القوانين الوضعية التي تُلقي الإنسان في تيهٍ لا يتفق مع قدرته ولا مع طبيعته ولا بدَّ من التوازن بين الحرية والعبودية ، وليس هناك توازن في هذا السبيل يطلق قدرات الإنسان ، ويحافظ على طبيعته في آن واحد ، إلاّ بما نجده في الإسلام ؛ عبودية للّه ، وحرية من سائر العبوديات ، فلا تكتمل حرية العبد إلاّ بعبوديته للّه ولا تكتمل عبوديته للّه إلاّ بتحرره من عبادة سواه ، فهنا توازن واتّساق واضح بين الجانب الاجتماعي والجانب الإيماني في شخصية المسلم عن طريق الحرية كما يراها الإسلام وعلى

ضوء ما تقدم ، فالعقيدة تُقرِّر حقيقة أساسية هي أنّ جوهر الحرية الحقيقية ، هو العبودية للّه ، لأنّها تعني التحرر من جميع السلطات الجائرة ، وليس في العبودية للّه أي امتهان لكرامة الإنسان ، بل تعزّز شخصيته وتحافظ على مكانته ، فقد كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم يتشرف بكونه عبداً للّه ، ويحب أن يطلقوا عليه صفة العبودية ويرفض الغلوّ الذي قد يؤدي إلى التأليه الباطل ، كما حدث لأهل الكتاب رغم التحذير الإلهي لهم من الغلو في أشخاص رسلهم ، قال تعالى :(يأهلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا في دينِكُم ولا تقُولُوا على اللّه إلاّ الحَقَّ إنَّما المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسُولُ اللّه وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منهُ ..) .

إنّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام تحارب فكرة تأليه البشر من خلال التركيز على صفة العبودية أحياناً وفكرة تأليه البشر كانت سائدة في الأمم الأخرى ، وتسرّبت إلى أتباع الأديان السماوية فخالطت عقائد بعضهم ، فالمسيحية على سبيل المثال تدَّعي إلوهية المسيح ، واليهودية تزعم أنّ عزيرا ابن اللّه!

ثانيا : حرَّرت العقيدة الإسلامية الإنسان المسلم من شهوات نفسه بعد ما ربطت قلبه باللّه والدار الآخرة ، ولم تربطه بأهوائه ونزواته ، لقد

زودت العقيدة عقل المسلم وإرادته بالحصانة الواقية من الانحراف أو إيثار العاجل الفاني على الآجل الباقي .

ثالثا : إنّ العقيدة الإسلامية حرَّرت الإنسان من عبادة الطبيعة ومن تقديس ظواهرها ، ومن الخوف منها ، يقول تعالى : « ومِن آياتِهِ الليلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقمرُ لا تسجُدوا للشمسِ ولا للقمرِ ...) فلقد مرَّ الإنسان بمرحلة الحيرة والتساؤل والقلق من مظاهر الطبيعة من حوله ، فهو لا يعرف شيئا من أسرارها وأسباب تقلّب أحوالها ، فأخذ يقدّسها ويقدّم لها القرابين بسخاء ، متصورا أنّه سوف يأمن بذلك من ثورات براكينها الملتهبة وزلازلها المدمّرة وسيولها الجارفة وصواعقها الحارقة ، فعملت العقيدة على تنقية العقول من غواشيها ، وفتحت الطريق أمامها واسعاً لاستثمار الطبيعة والتصالح معها ، عندما رفعت ما كان من حجب كثيفة بين الإنسان والطبيعة ، وانكشف له أنّ الطبيعة ومظاهرها وما فيها من مخلوقات وحوادث كلها ، ومخلوقات مسخّرة لخدمته ، وما عليه إلاّ أن ينتفع بها ويتفكر فيها حتى يصل عن طريقها إلى الخالق : (أفلا يَنظُرونَ إلى الإبلِ كيفَ خُلقت * وإلى السَّماء كيفَ رُفِعت * وإلى الجِبالِ كيف نُصِبت * وإلى الأرض كَيفَ سُطِحت) ولا بدَّ من الاشارة إلى أنّ منهج العقيدة في بناء الإنسان يُنظّم علاقة الإنسان بنفسه وبربّه وبالطبيعة من حوله ، وكل توثيق أو تطور في العلاقة بين

الإنسان وربّه سوف ينعكس إيجابياً على علاقته مع الطبيعة المسخّرة بيد اللّه تعالى ، فتجود على الإنسان المؤمن بالخير والعطاء ، لذلك طلب النبي هود عليه‌السلام من قومه الذين ابتعدوا عن منهج السماء فحُبس عنهم المطر ثلاث سنين وكادوا يهلكون أن يستغفروا ربّهم عما سلف من ذنوبهم ، وأن يتوبوا إليه قال لهم : (يا قوم استغفرُوا ربَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إليهِ يُرسِلِ السَّماءَ عليكُم مِدرارا ويَزدكُم قُوَّةً إلى قوَّتِكُم ولا تَتولَّوا مُجرمين) وعليه فالعبادة الحقة ، يجب أن تكون للّه وحده ، والخوف يجب أن يكون من الذنوب ، التي تُثير سخط اللّه وتجلب انتقامه ، فيستخدم الطبيعة أداة للعقوبة ، كما أغرق اللّه فرعون باليّم ، وأرسل الريح العقيم التي أهلكت قوم عاد ، وهكذا نجد أنّ أكثر العقوبات التي حلّت بالكافرين قد نُفّذت بواسطة قوى الطبيعة ، مما يكشف لنا العلاقة بين الإنسان والطبيعة ، وفي هذا الصدد نجد فى الأثر « وجدنا في كتاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إذا منعوا الزّكاة منعت الأرض بركتها من الزّرع والثمار والمعادن كلّها وإذا أمسكت الزكاة هلكت الماشية ، وإذا جار الحكام في القضاء أمسك القطر من السماء .. » .

وجملة القول أنّ خوف الإنسان يجب أن يتركز على الذنوب والخطايا التي تسبب تدمير المجتمعات ورفع البركات ، أما الخوف من الطبيعة والاعتقاد بأنّ بعض ظواهرها شرور لا تجتمع مع النظام السائد على

العالم أولاً وحكمته وعدله ثانيا ، فإنّما هو ناشيء من نظراتهم الضيّقة المحدودة إلى هذه الامور ، ولو نظروا الى هذه الحوادث في إطار النظام الكوني العام لأذعنوا بانها خيرٌ برمتها ، فللوهلة الاولى تتجلى تلك الحوادث شراً وبلية ، ولكن المتعمّق فيها يرى أنّها مدعاة إلى الخير والصلاح ، وتفصيل فلسفة البلايا والشرور في العالم موكول إلى علم الكلام ، ولكن نعود ونؤكد أن العقيدة الإسلامية أعادت صياغة عقل الإنسان تجاه الطبيعة المحيطة به ، بشكل يجعله أكثر حريةً وتفاعلاً معها.

رابعاً : تحرير الإنسان من الأساطير ومن الخرافة في الاعتقاد أو السلوك ، من أجل رفع الحواجز الوهميّة التي تحول دون استخدام طاقة العقل على نحو سليم ، وكان الإنسان الجاهلي على سبيل المثال يتفاءل ويتشائم بحركات الطير ، فينطلق نحو الفعل إذا اتجه الطير يميناً ، ويتراجع عن العمل إذا اتجه الطير شمالاً ، وكانت طبقة الكهّان والمنجمين تحتل موقع الصدارة في السلّم الاجتماعي وتخدع الناس بادعائها علم الغيب ، وكان التطيّر يقيد الناس بحبال الوّهم عن السعي والسفر ، وكذا كان الاستقسام بالازلام ، إذ يأخذ من قصد عملاً ثلاثة سهام ـ ، يكتب على أحدها : « إفعل » وعلى الآخر : « لا تفعل » ويترك الثالث هملاً ، ويمد يده ليأخذ أحدها ، فإن خرج الأول أقبل على عمله ،

وإن أصاب الثاني توقف ، وإن خرج الثالث أعاد الكرّة! وكان السحر متفشيا بين الناس ينذر بشرّ مستطير ، فعملت العقيدة على محاربة هذه المظاهر ، وكانت سبباً لتفتح العقول والسمو بالنفوس ، وإخراج الناس من ظلمات الوهم والخرافة إلى نور العلم والحقيقة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس منّا من تطيّر ولا من تُطيّر له ، أو تكهّن أو تكُهّن له ، أو سحر أو سُحر له وقال أيضاً : من ردّته الطِيَرة عن حاجته فقد أشرك » وحرَّرت العقيدة عقل المسلم من استنتاجات المنجّم ، فاعتبرت المنجّم كالكاهن ، كلاهما يسعيان إلى تقييد حركة الإنسان في الحياة والتلبيس على عقله .

بناء فكر الإنسان

للعقل مكانة كبيرة في الدين الإسلامي ، فهو أصل في التوصّل إلى الاعتقاد الصحيح ، ودليل من أدلة الاجتهاد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولكلِّ شيء دعامة ، ودعامة الدين العقل » ويشكّل العقل دعامة الإنسان المؤمن قال صلى الله عليه وسلم : « من كان له عقل كان له دين ، ومن كان له دين دخل الجنة » وقد بلغت النصوص التي تتناول التنبيه إلى دور العقل المئات ، ومن خلال نظرة عامّة إلى هذه النصوص نكتشف أن دور الإسلام في إعطاء العقل دوره الحقيقي قد جاء على مرحلتين ؛ فهو يبتدئ بتحرير العقل ، ثم ينتقل إلى توجيه طاقاته.

تحرير العقل :

هذه الخطوة الأولى من خطوات المشروع الإسلامي نكتشفها في النصوص التي توجهت إلى نبذ القيود التي تقيّد العقل وتمدُّ من نشاطه الحقيقي ، وتقوده إلى أخطاء خطيرة بسبب ذلك وهذا ما نجده في نموذجين بارزين :

الأول : نبذ التقليد الأعمى : وأمثلته في القرآن الكريم كثيرة جداً ، نقرأها في سور ومشاهد متعدّدة :فبينما كان يؤكد افتقارهم إلى أدنى حجّة ذات قيمة في ما يعتقدون من عبادة الأوثان والعقائد الزائفة ، ركّز على أنَّ كلّ ما يمتلكونه من حجّة هو أنّهم وجدوا آباءهم على ذلك ، فتمسّكوا به « بَل قالُوا إنّا وجَدنَا آباءَنا على أُمّةٍ وإنَّا على آثارهِم مُهتَدُون » ثم يؤكد أنّ هذا هو ديدن هذا الصنف من الناس الذي أغلق على ذهنه المنافذ (وكذلِكَ ما أرسلنَا مِنْ قبلِكَ في قرَيةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلاّ قالَ مُترفُوها إنّا وجدَنا آباءَنا على أُمّةٍ وإنّا على آثارهِم مُقتَدُون) وهكذا يسوق مقولتهم هذه مرتين في آيتين متتابعتين ليجسّد ما تنطوي عليه هذه المقولة من تهافت ، وما يغيب فيه هؤلاء من جهل متجذّر موروث لا يصغي لدعوة حق ولا لبرهان ساطع بل ليس لديهم أكثر من ترديد مقولتهم تلك (أجِئتَنا لتَلفِتنا عمّا وجَدنا عليهِ آباءَنَا)؟! حتى لو جاءهم

متحدياً لما وجدوا عليه آباءهم مبيّناً فساده (قال أوَلو جِئتُكُم بأهدى ممَّا وجدتُم عليهِ آباءَكُم)؟ حتى مع مثل هذه الاستثارة لا يبحثون عن برهان ، ولا يفتحون نافذة للنظر ، بل وقفوا دائماً بتحجرّهم الأوّل ، و(قالُوا إنّا بما أُرسِلتُم بهِ كافِرُونَ) و(قالُوا حَسبُنَا ما وَجَدنَا عَليه آباءَنا)!! ويكرّر القرآن النكير على هؤلاء في مواضع أخر ، لأنّه إنما يواجه في نظريات استحكمت وترسخت لدى أُمم متتابعة ، لا يستبعد أن يكون لها امتداد في مستقبل الأمم أيضاً فلقد تجاوزت هذه النظرية حدود المعتقدات إلى السلوك والمعاملات (وإذا فعلُوا فاحِشةً قالُوا وجَدنا عَليها آباءَنا) و(قالُوا بَل وَجَدنَا آباءَنا كذلِك يَفعَلُونَ) بعد هذا يبيّن القرآن الكريم الجزاء الذي ينتظر قوماً مضوا على هذا النهج ، مثيراً الاذهان إلى ضرورة الحذر من نهج كهذا (فانتَقمنا مِنهُم فانظُر كيفَ كانَ عاقبةُ المُكذّبينَ) .

توجيه طاقة العقل

بعد أن حرّرت العقيدة الإسلامية العقل من القيود التي تأسره ، أطلقته إلى الأمام وهي توجه طاقاته من خلال اللفت والتدبر في الكون والحياة ، من أجل بناء متكامل ديناً ودنيا ويمكننا أن نشير إلى مجموعات من آيات الذكر الحكيم توجه العقل إلى آفاق رحيبة متعددة ، منها :

أولاً : التدبر في آيات اللّه تعالى في الآفاق وفي الأنفس :

قال تعالى : (إنَّ في خَلق السَّمواتِ والأرض واختلافِ اللَّيل والنَّهار لأياتٍ لأُولي الألبابِ * الَّذينَ يَذكُرُونَ اللّه قِياما وقعودا وعلى جُنُوبهم ويتفكَّرُونَ في خَلق السمواتِ والأرض ربَّنا ما خلقتَ هَذا باطلاً سُبحانَكَ فقِنَا عذابَ النَّار)ومما يلفت النظر عناية القرآن بذكر مشاهد الكون عناية كبيرة من خلال تكرار عرضها في أكثر من سورة ، ودعوته الإنسان بإلحاح إلى النظر والتأمل فيها ، والتفكر في مجرى حوادثها ، والأهم من ذلك كلّه جعل هذا الكون منطلقاً للوصول إلى اللّه تعالى خالقه ومبدعه.

وقد ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ : (إنَّ في خلق السَّمواتِ والأرض واختِلافِ اللَّيل والنَّهار لأياتٍ لأُولي الألبابِ * الَّذينَ يَذكُرُونَ اللّه قِيامَا وقعودا وعلى جُنُوبهم ويتفكَّرُونَ في خَلق السَّمواتِ والأرض ربَّنا ما خلقتَ هذا بَاطِلاً سُبحانَكَ فَقِنَا عذابَ النَّار) ويقول : « ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر فيها » .

ثانياً: النظر في سنن التاريخ : حيثُ دعتنا العقيدة إلى تأمل أحداث التاريخ بنظر ثاقب ، وفكر فاحص ، وصولاً إلى العوامل التي كانت سبباً في تدهور المجتمعات ، وسقوط الحضارات ، أو نموّها ، قال تعالى : (قد خلت من قبلكم سُنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) إنّها دعوة تريد من الناس أن يحركوا عقولهم ، وينظروا في

تاريخ من قبلهم ، حتى لا يكونوا كالقطيع التائه يسير بلا راع نحو المجهول ، وهي دعوة ذات منهج مرسوم من أجل الاستفادة من تجارب الحضارات السابقة ودراسة أسباب سقوطها ، لا سيّما وأنّ التاريخ يعيد نفسه قال تعالى : (سُنَّةَ اللّه في الذِينَ خلوا من قبلُ ولن تَجِدَ لسُنَّةِ اللّه تبديلاً) ولا بدَّ من التنويه على أنّ دور الدين ومسؤوليته في حياة الإنسان هو إيجاد جوّ من الملائمة والانسجام بين سلوك وتفكير الإنسان وبين سنن اللّه تعالى في الحياة ، وتحويل مجرى حياة الإنسان إلى تيار هذه السنن الإلهية التي جعلها اللّه نظاماً لخلقه وتكوينه في هذا الكون فالدين يوجّه فكر الإنسان إلى النظرة العميقة الهادفة ، وبطبيعة الحال هناك فرق كبير بين النَّظرة السطحية الساذجة للحياة والتاريخ ، وبين النظرة العميقة والمتفحصة التي لا تقتصر على ملاحظة الشيء أو الحدث ، وإنّما تنفذ إلى أعماقه ، وترصد لوازمه ودلالاته بغية استنباط السُنّة التاريخية التي تنطبق عليه ، فعلى سبيل المثال يمر السائح على أهرامات مصر ، فينبهر لروعة بنائها ، وشدة ارتفاعها ، ويتمتع بمنظرها وينتهي كل شيء أما المفكّر الواعي المتسلح بالعقيدة ، فعندما يمر عليها ، ترتسم في ذهنه عدَّة تساؤلات : عن قدرات الإنسان ، وعن الظلم الذي كان سائداً آنذاك من خلال تسخير الفراعنة لأعداد كبيرة من الناس للعمل في بناء هذه الاهرامات ، ومالاقوه من العناء والتعب

وصنوف التعذيب ، كما يستنتج ما تنطوي عليه فكرة الفراعنة الخاطئة عن الموت والبعث ، بل يتزود المؤمن الوعي بعد تلك المعارف بالعبرة النافعة وهو يشاهد خرائبها فيتسائل في نفسه، أين ساكنيها وما مصيرهم؟!.

ثالثا : النظر في حكمة التشريع : والغرض من ذلك ترسيخ قناعة المسلم بتشريعه وصوابه وبيان صلاحيته للتطبيق في كلِّ زمان ومكان ، من أجل أن تنقشع عن فكر المسلم غيوم الشبهات التي يثيرها أعداء العقيدة من حوله وإذا كانت بعض أحكام الدين الإسلامي توقيفية ، تدعو المسلم نحو التسليم بها ، ولا يجدي معها إعمال العقل ، كأمور العبادة ، إلاّ أن هناك تشريعات في الإسلام ذات أبعاد اجتماعية كشف القرآن لنا عن الحكمة الكامنة من وراء تشريعها لمصالح تعود إلى الفرد والمجتمع ، من قبيل قوله تعالى:(ولكُم في القِصَاص حياةٌ يأُولي الألبابِ لعلَّكُم تتَّقون) .

رابعا : توجيه العقل إلى النظر ، والتثبت في الرأي ، وحرية التفكير والقرار :

قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم:« لا تكونوا إمّعة ، تقولون : إنْ أحسنَ الناس أحسنّا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنَ الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن لا تظلموا » قال تعالى : (أفلا

يَتَدبّرونَ القُرآنَ أم على قُلوبٍ أقفالُها) نداء بليغ إلى النظر وإعمال الفكر ، من خلال الاستنكار على السطحيين والمغفّلين المعاندين ، أولاً ، ثم من خلال التقريع العنيف لهذه الأصناف من الناس ثانياً.

ولا قيمة لدعوى لا تستند إلى برهان صحيح ، وإذا كان الزمخشري قد رأى أنَّ هذا النصّ هو أهدمُ شيء لمذهب المقلّدين فإنَّ فيه ما يفيد أكثر من ذلك ، إذ قد ينصرف لفظ المقلّدين إلى من غلب عليهم التقليد ، لكنَّ هذا النصَّ حاكم على دائرة الفكر البشري بكامل أجزائها ونواحيها ، فقد يقع المفكرون وكثيراً ما وقعوا فى أغلاط كبيرة نتيجة اعتمادهم بعض الكليات العامّة التي استقر في أذهانهم أنها بديهيات لا تحتاج إلى برهان ، بينما لم تكن هذه الكليات في حقيقة أمرها إلاّ تصوّرات صادرة عن أوهام أو قصور في العقل وهذا كثير في أغلاط أهل الجدل ، بل قد يقع أحياناً حتى في العلوم التطبيقية ، حين يُنظر إلى بعض الاستنتاجات على أنّها قوانين علمية ثابتة ، في حين أنّها استنتاجات قائمة على ملاحظات ناقصة ، وهكذا نلمس مدى أكبر لدعوة القرآن الكريم إلى تقديم البرهان التام على كلِّ مقولة ودعوى سواء كانت في العلوم العقلية ، أو في العلوم التطبيقية ولا شك أنّ مساحة النظر والتدبّر واسعة ، سعة المعارف والمواقف ، وسنشير هنا إلى أثرين مهمّين :أحدهما عام عموم

النص القرآني المذكور ، وإن استهدف في ظاهره العقل المقلّد والمتابع ، شأن طوائف الناس الذين يغلب عليهم التقليد في عقائدهم ومواقفهم.

والأثر الثاني ، مما جاء في لون خاص من ألوان المتابعة والتقليد ، وهو التقليد الأعمى لأشخاص استقرَّ لهم في النفوس موقع كبير ، تلاشى إلى جنبه دور العقل وأثره في النظر والتفكير والنقد ، وكأن هؤلاء الاشخاص قد أصبحوا في أنفسهم ميزاناً للحقّ ، فلا يصحّ أن توزن أقوالهم وأعمالهم أو تعرض للنقد والنظر ، هذا النوع من التقليد الذي كان ولا يزال مصدرا للكثير من الأخطار في العقائد والمواقف

خامساً : توجيه الإنسان إلى كسب العلم والمعرفة :من المسلّمات التي لا تحتمل جدلاً ، أنّ الدين الإسلامي يحث بقوة على كسب العلم والمعرفة ، ومن يتأمل سور القرآن الكريم يجد ذلك يتكرر كثيراً تصريحاً أو تلميحاً : (.. قُل هَل يَستَوِي الَّذِينَ يَعلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعلمُونَ إنَّما يَتَذَكَرُ أُولُوا الألبابِ) (.. يَرفَعِ اللّه الَّذينَ ءامنُوا مِنكُم والَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ دَرَجاتٍ واللّه بما تَعمَلُونَ خَبيرٌ) ولأهمية العلم فقد أخذ اللّه تعالى الميثاق على أهل الكتاب من أجل تبيينه ، وعدم احتكاره : (وإذ أخَذَ اللّه مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لتُبيّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا تكتُمونهُ ..) وبعد آيات القرآن تأتي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته الأطهار عليهمالسلام حيثُ تصبُّ في هذا الاتجاه ، وتقرُّ بأنّ العلم يشكّل

عماد الدين وفيه حياة الإسلام ، وتحثُّ على طلبه ، وتكشف عن فضيلته ، فمداد العلماء في نظر الإسلام أفضل من دماء الشهداء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ، وفي هذا الصدد يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : طلبُ العلم أفضل عند اللّه من الصلاة والصيام والحجّ والجهاد في سبيل اللّه .

يقول : (جِب) في كتابه : الاتجاهات الحديثة في الإسلام :« أعتقد أنّه من المتفق عليه أنّ الملاحظة التفصيلية الدقيقة التي قام بها الباحثون المسلمون ، قد ساعدت على تقدّم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسة ، وأنّه عن طريق هذه الملاحظات وصل المنهج التجريبي إلى أوروبا في العصور الوسطى ».

وللإنسان أن يقف مبهورا أمام عظمة العقيدة الإسلامية ، التي أحدثت ذلك الانقلاب الحضاري في نفوس أبناء الصحراء حتى صاروا طليعة العالم كلّه في العلم والمعرفة وسائر جوانب الحضارة والمدنية.

العلم والإيمان :

وتجدر الاشارة إلى أنّ العقيدة تربط العلم بالايمان ، فالعلم بدون إيمان كغرس بلا ثمر ، العلم يدعو إلى الايمان ، والايمان بدوره يحث على العلم ، والفصل بينهما يؤدي إلى عواقب لا تحمد عقباها فلقد أثبتت

التجارب التاريخية ، أنّ فصل العلم عن الايمان قد أدى إلى أضرار لا يمكن تعويضها ، يجب معرفة الايمان على ضوء العلم ، والايمان يبتعد عن الخرافات في نور العلم ، وبفصل العلم عن الايمان يتحول الايمان الى الجمود والتعصب الأعمى والدوران بشدة حول نفسه ، وعدم الوصول إلى مكان ، والمكان الفارغ من العلم والمعرفة ينقلب فيه المؤمنون الجهلة إلى آلة بيد كبار المنافقين ، الذين رأينا ونرى نماذج منهم في خوارج صدر الإسلام ، والأدوار التي تلت بصور مختلفة والعلم بلا إيمان سراج في منتصف الليل بيد لص لسرقة أفضل البضائع ،لهذا فإنّ الإنسان العالم بلا إيمان اليوم ، لا يختلف عن الجاهل بلا إيمان في الأمس أقل الاختلاف ، من حيث طبيعة الأساليب والأفعال وماهيتها وعليه فالعلم بحاجة إلى الايمان كحاجة الجسد إلى روح ، لأنّ العلم وحده عاجز بطبيعته عن بناء الإنسان الكامل ، فالتربية العلمية الخالصة تبني نصف إنسان لا إنسانا كاملاً ، وتصنع إنساناً قد يكون قوياً وقادراً لكنّه ليس فاضلاً بالضرورة ، هي تصنع إنساناً ذا بعد واحد ، هو البعد المادي ، أما الإيمان فإنّه يصوغ الشخصية في مختلف الأبعاد.

ولقد بلغ اغترار الأوروبيين بالعلم حداً وصل إلى حد التأليه والعبادة ، وإن لم يقيموا شعائره في كنائسهم ، ولمّا كان الدين يرتكز على قواعد غيبية ، خارج نطاق المادة ، اعتبروه ظاهرة غير علمية وعلى هذا

الأساس ظهر بينهم داء الفصل بين الدين والعلم ، وهو توجّه غريب عن منهج الإسلام ، وليس أدل على هذا التماسك بين الايمان والعلم من هذه الدعوة الملحّة ، في الدين إلى طلب العلم والاستزادة منه في كل مراحل العمر ، وفي كلّ الحالات ومن هذه القيمة الكبيرة التي يعطيها الدين للعلم والعلماء وإذا كان هناك صراع بين العلم والدين في بعض فترات التاريخ ، كما حدث في تاريخ المسيحية ، فذلك لا علاقة له بالدين ، وإنّما هو لون من ألوان الانحراف عن الدين ، ولا يكون الدين مسئولاً عما يرتكب الناس فى حقه من انحراف ومما يؤسف له ، أنّ بعض الأصوات ترتفع هنا وهناك تنادي بالفصل بين العلم والدين ، بدعوى أنّ أوروبا تنكّرت للدين فتقدمت علمياً وحضارياً ، ونحن تمسكنا بالدين فتخلّفنا ، إنّ عقول هؤلاء إما قاصرة عن إدراك وظيفة العلم الذي هو أداة لكشف الحقائق الموضوعية ، وتفسير الواقع تفسيراً محايداً بأعلى درجة من الدقة والعمق أو أنّ هذه العقول جاهلة بمنهج الإسلام الذي ما انفك يدعو إلى العلم ، وأغلب الظن أنها عقول مأجورة تُردد مزاعم الأعداء والحاقدين على الإسلام ، وتغضّ الطرف عن العواقب الروحية الجسيمة ، التي حدثت جرّاء فصل العلم عن الدين وأوضح الأمثلة على ذلك ، هذا العصر الذي نعيش فيه ، العصر الذي وصل فيه التقدم العلمي والمادي ذروته ، ووصلت الإنسانية إلى حضيضها من التقاتل الوحشي والتخاصم الذي

يقطع أواصر الإنسانية ، ويجعلها تعيش في رعب دائم وخوف من الدمار ، كما وصلت إلى الحضيض في تصورها لأهداف الحياة وغاية وجود الإنسان وحصرها في اللّذة والمتاع ، وانحطاطها تبعاً لهذا التصور إلى أحطّ دركات الانحلال الخلقي والفوضى الجنسية التي يعف عنها الحيوان وعليه فإنّ العقيدة الإسلامية لها فضل كبير على مناهج التربية التي تسعى لبناء الإنسان ، لتأكيدها على دور الايمان والعلم معاً في بناء شخصية الإنسان ، وبفصل العلم عن الايمان يغدو الإنسان كإبرة مغناطيس تتأرجح بين الشمال والجنوب ، وعليه فهو بحاجةٍ ماسة إلى قوة تتمكن من إيجاد ثورة في ضميره ، وتمنحه اتجاهاً أخلاقياً يحقق إنسانيته ، وهذا عمل لا يتمكن منه العلم بمعزل عن الدين.

البناء الاجتماعي والتربوي

قامت العقيدة بتغيير كبير على صعيد البناء الاجتماعي والتربوي ، يمكن الإشارة إليه من خلال النقاط التالية :

أولاً : إثارة الشعور الاجتماعي :فلقد كان إنسان ما قبل الإسلام يتمحور في سلوكه الاجتماعي حول ذاته ، وينطلق في تعامله مع الآخرين من منظار مصالحه وأهوائه ، وينساق بعيداً مع أنانيته ولقد هبط في القاع الاجتماعي إلى درجة وأد أبنائه ، خشية الفقر والمجاعة ، الأمر الذي

استدعى التدخل الإلهي ، لإنقاذ النفوس البريئة من هذه العادة القبيحة ، قال تعالى : (ولا تَقتُلُوا أولادَكُم خَشيةَ إملاق) على أنّ أشد ما يسترعي الانتباه ، أنّ ذلك الإنسان الجاهلي ، الدائر حول ذاته ومنافعها ، قد غدا بتفاعله مع إكسير العقيدة ، يضحي بالنفس والنفيس في سبيل دينه ومجتمعه ، وبلغت آفاق التحول في نفسه إلى المستوى الذي يُؤثِر فيه مصالح أبناء جنسه على منافع نفسه.

ولا يخفيّ على أحد مستوى الإيثار الذي أبداه الأنصار مع المهاجرين ، إذ شاطروهم في كلِّ ما يملكون ، حتى في بيوتهم وأمتعتهم ، ولم ينحصر هذا المستوى من الايثار فى أفراد ، بل شكّل ظاهرة اجتماعية عامّة لم يشهد لها تاريخ الإنسانية نظيراً وفي هذه الظاهرة نزل قرآن كريم يبارك هذه الروح ، ويخلّد ذكر مجتمع تحلّى بها ، كنموذج من نماذج التلاحم الاجتماعي والمؤاخاة قال تعالى : (لِلفُقَرَآءِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخرجوا مِن دِيارِهِم وأموَالِهِم يَبتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللّه وَرِضواناً وَيَنصُرُونَ اللّه وَرَسُولَهُ أُولئكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإيمانَ مِن قبلِهِم يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إليهِم وَلا يَجِدُونَ في صُدُورِهِم حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤثِرُونَ عَلى أنفُسِهِم ولَو كانَ بهِم خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأُولئكَ هُمُ المُفلِحُونَ) وينقض الإسلام أسساً في البناء الاجتماعي الجاهلي قوامها تعزيز التقسيم الطبقي والقبَلي للمجتمع ، الذي كان

يتشكل من طبقتين أساسيتين ؛ طبقة الأشراف ، والعبيد ، ولا بدَّ لأبناء طبقة الأشراف أن يبقوا هكذا ، تجتمع لديهم الثروات ويحتكرون الشأن والوجاهة ، ولابدَّ لأبناء طبقة العبيد أن يبقوا هكذا يدورون في فلك الأسياد فقوّض الإسلام هذه الأسس وأقام محلّها أسساً جديدة تساوي بين الناس في حق الحياة وحق الكرامة قال تعالى:(يا أيُّها الناسُ إنّا خَلقنَاكُم مِن ذكَرٍ وأنثى وجَعَلنَاكُم شُعُوباً وقبَائلَ لِتَعارفُوا إنَّ أكرَمَكُم عِندَ اللّه أتقاكُم) ، فتحرر أبناء طبقة العبيد ومارسوا حقهم في الحياة ، وارتفع عمار وسلمان وبلال عالياً فوق طبقة أشراف قريش التي ما زالت تتخبط في ضلالات الجاهلية ،كالوليد بن المغيرة وهشام بن الحكم وأبي سفيان وأمثالهم وحتى الأموال لم تعد حكرا على الأغنياء ليزدادوا ثراءً ، قال تعالى : (مَّآ أفَآءَ اللّه عَلى رَسُولِهِ مِن أهل القُرى فللّه وَلِلرَّسُول وَلِذي القُربى وَاليتامى والمساكِينِ وَابنِ السَّبيلِ كَي لا يَكُونَ دُولَةً بَينَ الأغنِيآءِ مِنكُم وَمَآ آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نهَاكُم عَنهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللّه إنَّ اللّه شَدِيدُ العِقابِ) .

أساليب تنمية الشعور الاجتماعي :

لقد نمّت العقيدة الشعور الاجتماعي لدى الفرد بوسائل عديدة ، منها :

أ ـ إيقاظ الشعور بالمسئولية تجاه الآخرين من خلال تأكيد القرآن الكريم على مسئولية الإنسان تجاه نفسه وغيره ، كقوله تعالى: (يا أيُّها الَّذِين آمَنُوا قوا أنفُسَكُم وَأهلِيكُم نَارا ..) .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « وإنّي مسؤول وإنّكم مسؤولون

وقوله صلى الله عليه وسلم أيضا : « ألا كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته ، فالأمير الذي على النّاس راع ، وهو مسؤول عن رعيته ، والرَّجُلُ راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم ، والمرأة راعية على بيتِ بعلها وولده ، وهي مسؤولة عنهم .. » [1].

وكنظرة مقارنة ، نجد أنّ المذاهب الاجتماعية الوضعية ، بُنيت على أساس المسئولية الفردية في هذه الحياة فحسب ، وتأييدها بمؤيدات قانونية كحجز الحرية ، أو التعذيب ، أو التغريم المالي أو العزل عن الوظيفة ، أو المكافأة بالمال أو الترقية في الوظيفة وما إلى ذلك ، وبمؤيدات اجتماعية كالثقة أو حجبها والتقدير أو التحقير أما المذهب الإسلامي ، فلا يقتصر على مسئولية الفرد أمام المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه في هذه الحياة ، إنّما يُنمّي في الفرد المسئولية العظمى أمام الخالق العظيم في حياة أخرى ، وحينئذ يدفعه إلى التحديد الذاتي أو

الطوعي لرغباته ، والشعور الاجتماعي نحو غيره ، بغض النظر عن القانون أو العرف أو الضمير ، لأنّ الضمير قد يعجز عن مواجهة الغرائز عند فقدان العقيدة الدينية ، كما أنّه ليس من الميسور توفير الرقابة الاجتماعية في كلِّ مكان ، وبصورة دائمة ، وعليه فإنّ هذه الرقابة الداخلية لا توجد في غير العقيدة الدينية.

ب ـ تنمية روح التضحية والايثار :لقد حثَّ القرآن الكريم على الايثار ، وأشاد بروح التضحية حيث لمّا بات علي بن أبي طالب على فراش الرسول صلى اللهعليه وآله وسلم يفديه بنفسه ، فيؤثره بالحياة ، أشاد اللّه تعالى بموقف التضحية الفريد ، فأنزل : « ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشري نَفسهُ ابتغاءَ مرضاتِ اللّه واللّه رؤوفٌ بالعبادِ » يقول الفخر الرازي : « ... نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام ، بات على فراش رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ليلة خروجه إلى الغار ، ويروى أنّه لمّا نام على فراشه قام جبريل عند رأسه ، وميكائيل عند رجليه ، وجبريل ينادي : بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي اللّه بك الملائكة ، ونزلت الآية .

وقدّمت السيرة المطهّرة القدوة الحسنة في هذا المقام ، فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنّه ما شبع ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شاء لشبع ، ولكنه كان يؤثرُ على نفسه .

ومن الشواهد التاريخية ، التي تدل على ذلك التحوّل الاجتماعي الكبير الذي أحدثته العقيدة ، في فترة وجيزة ، أنّه أُهدي لرجل من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال : إنّ أخي فلاناً أحوج إلى هذا منّا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداوله سبعة بيوت حتى رجعت إلى الأول .

هكذا تربي العقيدة الإنسان المسلم على الشعور الاجتماعي ، شعور الفرد نحو غيره ، فيتجاوز دائرة الذات إلى دائرة أرحب هي دائرة العائلة ، ثم تتسع اهتماماته لتشمل دائرة الجوار ، ثم أبناء بلدته ، وبعدها أبناء أمته ، وفي نهاية المطاف تتسع لدائرة أكبر فتشمل الإنسانية جمعاء.

ج ـ تنمية الشعور الجماعي :وفي هذا الصدد ، نجد فيض من الأحاديث التي تحثُّ الفرد على الانضمام للجماعة والانسجام معها ، والانصباب في قالبها ، بعد أن ثبت عند العقلاء أنّ في الاجتماع قوة ومنعة ، وبعد أن أكد النقل على أنّ اللّه تعالى قد جعل فيه الخير والبركة ، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يدُ اللّه مع الجماعة ، والشيطان مع

من خالف الجماعة يركُضُ » وقال صلى الله عليه وسلم : « من خرج من الجماعة قيد شبر ، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » وفي كلٍّ ذلك دليل قاطع على أنّ الإسلام دين اجتماعي ، يحاول ربط الفرد بالجماعة ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وهنا لا بدَّ من التنبيه على أنّ الحكام الظلمة ، قد استغلوا مفهوم الجماعة أبشع استغلال لتثبيت سلطانهم والمحافظة على عروشهم ، فاخذوا يصبّون جام غضبهم على كلِّ من يجهر بكلمة حق ويقوم بمعارضة تسلطهم اللامشروع ، ويفضح أساليبهم غير الإسلامية ، وكان الأمويون ـ الذين اتّخذوا مال اللّه دولاً وعباده خولاً يقتلون كل من خرج عليهم بحجة أنّه مفارق للجماعة ، وكذلك سار العباسيون على ذلك النهج ، بل وتفوّقوا على الأمويين في ابتكار أساليب القتل والتعذيب ومن يتصفّح كتب التاريخ ، يجد أنّه ينقل صوراً بشعة لأساليب التنكيل والقتل التي مارسها الأمويون والعباسيون ضد العلويين بحجة واهية هي الخروج عن الاجماع والجماعة على أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوضح بجلاء مفهوم الجماعة الذي لا يعني الكثرة ، كما يتصوره السطحيون وكما يُحرِّفه السلطويون ، بل يعني جماعة أهل الحقّ وإن قلّوا قال صلى الله عليه وسلم : من فارق جماعة المسلمين فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه قيل : يا رسول اللّه ما جماعة المسلمين؟

قال صلى الله عليه وسلم : جماعة أهل الحق وإن قلّوا » وعودة إلى أصل المطلب ، فقد تبيّن لنا أنّ العقيدة تدعو الإنسان المسلم إلى الانضمام إلى الجماعة ، وهنا تساؤل يفرض نفسه ، وهو وجود أحاديث كثيرة في مصادرنا ، تدعو المسلم إلى إيثار العزلة ، وبالتالي الابتعاد عن الناس ، يُجيب مؤلف جامع السعادات ، عن ذلك بقوله : (نظر الأولون إلى إطلاق ما ورد في مدح العزلة ، وإلى فوائدها كقول النبي صلى اللهعليه وسلم : إنّ اللّه يحب العبد التقي الخفي ، وقوله صلى الله عليه وسلم : أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل اللّه ، ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب .

ويمكن حمل العزلة على تجنّب مخالطة الأشرار ، فقد ورد في وصية الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي ذر الغفاري: يا أبا ذر ، الجليس الصالح خيرٌ من الوحدة ، والوحدة خيرٌ من جليس السوء أما الاختلاط بالأخيار ، فهو أمر مرغوب فيه ، والإسلام يحثُ عليه ، وعلى العموم فهناك حالات استثنائية تستدعي العزلة عن الناس ، أما القاعدة العامة في الإسلام ، فتؤكد على مخالطة الناس ، والصبر على أذاهم.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم والإسلام يبغض العزلة التامة عن الناس مهما كانت مبرراتها

فلا رهبانية في الإسلام كما هو معروف ، ومن شواهد النقل على ذلك أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقد رجلاً ، فسأل عنه فجاء ، فقال : يا رسول اللّه إنّي أردتُ أن آتي هذا الجبل فأخلو فيه فأتعبّد ، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : لصبر أحدكم ساعةٍ على ما يكره في بعض مواطن الإسلام خير من عبادته خالياً أربعين سنة .

ثانيا : تغيير نظم الروابط الاجتماعية

كان المجتمع الجاهلي يعتبر رابطة الدم والرحم أساس الروابط الاجتماعية ، فيضع مبدأ القرابة فوق مبادئ الحق والعدالة في حال التعارض بينهما ، والقرآن الكريم قد ذمَّ هذه الحمَّية الجاهلية صراحة : (إذ جعلَ الَّذِينَ كَفرُوا في قُلوبهِم الحَمِيَّةَ حِميَّةَ الجَاهِلِيَّةِ) وعملت العقيدة على إزالة غيوم العصبية عن القلوب ، ولم تقرَّ التفاضل بين الناس القائم على القرابة والقومية أو اللّون والمال والجنس ، وبدلاً من ذلك أقامت روابط جديدة على أسس معنوية هي التقوى والفضيلة.

وعليه فالعقيدة تنبذ كل أشكال العصبية ، إذ لا يمكن التوفيق بين الإيمان والتعصّب قال صلىالله‌عليه‌وسلم : ليس منّا من دعا إلى عصبية ، وليس منّا من قاتل على عصبيّة ، وليس منّا من مات على عصبيّة وهكذا نجد أنّ العقيدة قد عملت على قشع غيوم العصبية السوداء من

القلوب ، وقامت بتشكيل هوية اجتماعية جديدة للناس تقوم على الإيمان باللّه ورسوله ، وإشاعة مشاعر الحب والرّحمة بدلاً من مشاعر التعصّب والكراهية ، فالعصبية التي تعني : مناصرة المرء قومه ، أو أسرته ، أو وطنه ، فيما يخالف الشرع ، وينافي الحق والعدل وهي : من أخطر النزعات وأفتكها في تسيّب المسلمين وتفريق شملهم، وإضعاف طاقاتهم الروحية والمادية وقد حاربها الإسلام ، وحذّر المسلمين من شرورها ومن أبرز مظاهر التغيير الاجتماعي ، الذي صنعته العقيدة أنّ هناك أفراداً كانوا في أسفل السلَّم الاجتماعي في فترة ما قبل الإسلام ، فإذا هم بعد إشراق شمس الإسلام ، يتصدرون قمة الهرم الاجتماعي ، فبلال الحبشي يصبح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسلمان الفارسي هو رجل من بلاد فارس ، تنقّل من رقّ إلى رقّ ، أصبح في عصر الإسلام صحابياً جليلاً ، وحاكماً عاماً على بلاد كبيرة ، وفوق كل ذلك غدا من أهل البيت عليهم السلام وكان زيد بن حارثة وابنه أسامة ممن ينبغي وفق التقسيم الجاهلي أن يكونا في طبقة العبيد ، فإذا بهما يقودان جيوش المسلمين في اثنتين من أكبر الحملات الإسلامية عدّة وعدداً ولم يكن من اليسير أن يتم هذا التحوّل الكبير في أفكار الناس وعلاقاتهم ، في هذه الفترة القصيرة من عمر الرسالة ، لولا التغيير الكبير الذي اضطلعت به العقيدة الإسلامية.

ثالثا : الحث على التعاون والتعارف:نقلت العقيدة أفراد المجتمع من حالة التنافس والصراع إلى حالة التعارف والتعاون والقرآن مصدر العقيدة الأول ، يحث الناس على الاجتماع والتعارف ، يقول تعالى : (يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلقناكم مِن ذكرٍ وأُنثى وجَعلنكُم شُعوبا وقبائلَ لتعارفوا إنَّ أكرمَكُم عند اللّه أتقاكُم ...) .

كما حثَّ الناس على التعاون : (وتعاونُوا على البرِّ والتّقوى ولا تعاونوا على الإثمِ والعُدوان) وقد أثبتت تجارب البشرية أنّ في التعاون قوة ، وأنّه يؤدي إلى التقدم ، وكان المجتمع الجاهلي متخلفاً ، يعيش حالة الصراع بدافع العصبية القبلية ، أو طغيان الأهواء والمصالح الشخصية ، أو بسبب احتكار البعض لمصادر الكلأ والماء ، فانتقل ذلك المجتمع بفضل الإسلام إلى مدار جديد بعد أن تكرّست فيه قيم التعاون والتكافل الاجتماعي وفي سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان مصدراً لحضارة ، وباعثاً لنهضة نجد شواهد عديدة على حبه للتعاون والتكافل وحثه المتواصل عليهما ، منها : -

أنّه أمر أصحابه بذبح شاة في سفر ، فقال رجل من القوم : عليَّ ذبحها ، وقال الآخر : عليَّ سلخها ، وقال آخر : عليَّ قطعها ، وقال آخر : عليَّ طبخها ، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم :عليَّ جمع الحطب فقالوا : يا رسول اللّه ، نحن نكفيك قال صلى الله عليه وسلم : عرفتُ أنّكم

تكفوني ، ولكن اللّه عزَّ وجلَّ يكره من عبده إذا كان مع أصحابه أن ينفرد من بينهم وقام يلقط الحطب لهم .

وكما كرّه الرسول صلى الله عليه وسلم في الموقف السابق أن ينفرد الإنسان عن سربه الاجتماعي ، ويكتفي بموقف المتفرج لا يقوم بشيء من المشاركة معهم ، كذلك كرّه أن يصبح الإنسان كلاً على جماعته ، يعتمد على غيره في عيشه وشؤونه ، بدون مبرر معقول : ذُكر عند النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجل قالوا : يا رسول اللّه ، خرج معنا حاجّاً ، فإذا نزلنا لم يزل يهلّل اللّه حتّى نرتحل ، فإذا ارتحلنا لم يزل يذكر اللّه حتى ننزل فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « فمن كان يكفيه علف دابته ، ويصنع طعامه؟ قالوا : كلّنا ، قال صلى الله عليه وسلم : كلّكم خير منه.

رابعا : تغيير العادات والتقاليد الجاهلية

كان للعقيدة أثر بالغ في تغيير الكثير من العادات والتقاليد ، التي تُمتهن فيها كرامة الإنسان ، وينتج عنها العنت والمشقة ، وقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته الأطهار بدور حضاري هام ، في هذا المقام ، قال صلى الله عليه وسلم :لا تقوموا كما يقوم الأعاجم بعضهم لبعض ، ولا بأس بأن يتخلل عن مكانه وسعى صلى الله عليه

وسلم لإشاعة وترسيخ عادات تربوية جديدة ، روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام ، قال : كان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس حين يدخل وروي أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال إذا أتى أحدكم مجلساً فليجلس حيثُ انتهى مجلسه فكان صلى الله عليه وسلم يعمل على تغيير العادات في مختلف مجالات الحياة ، في القيام والجلوس ، وفي المطعم والمشرب والملبس وغير ذلك.

البناء النفسي

إنَّ لكلِّ عقيدة أثراً في نفس صاحبها ، يدفعه إلى نوع من الأعمال والتصرفات ، ولقد كانت لعقيدة الإيمان باللّه في المسلمين آثار في النفس عميقة ، كان لها نتائجها العملية في الحياة العامة ، يمكن الإشارة إليها إجمالاً في النقاط التالية : ـ

أولاً : طمأنينة النفس : إنّ الإنسان المتدين يجد في العقيدة اطمئناناً رغم عواصف الأحداث من حوله ، فهي تدفع عنه القلق والتوتر ، وتخلق له أجواء نفسية مفعمة بالطمئنينة والأمل ، حتى ولو كان يعيش في بيئة غير مستقرة أو خطرة وتاريخ الإسلام يحدثنا بما لا يحصى من ذلك ، فعلى الرغم من أن المسلمين الأوائل كانوا يعيشون ظروفاً صعبة ، حيثُ الحروب المتوالية التي أثارتها قريش وحلفاؤها ، وما صاحبها من

مقاطعة اقتصادية وعزلة اجتماعية وضغوط نفسية ، إلاّ أنّهم كانوا يتمتعون بمعنويات عالية ، ويندفعون للقتال بنفس مطمئنة إلى ثواب اللّه ورحمته عن أنس أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : قوموا إلى جنّة عرضها السّماوات والأرض ، فقال عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول اللّه ، جنّة عرضها السّماوات والأرض؟! قال : نعم ، قال : بخ بخ! لا واللّه يا رسول اللّه ، لابدَّ أن أكون من أهلها ، قال : فإنّك من أهلها ، فأخرج تميرات من قرنه فجعل يأكل منهنَّ ، ثم قال : لئن حييت حتّى آكل تمراتي هذه إنّها حياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ، ثمّ قاتل حتى قتل فالبيئة التي يتواجد فيها هذا المجاهد كانت خطرة ، فهو يعيش أجواء حرب بدر ، ولكن نفسه كانت سعيدة ، حيثُ يأمل العيش في جنّة عرضها السماوات والأرض فالمسلم بفضل عقيدة الإيمان باللّه تعالى يشعر بالرضا والاطمئنان بما يقع في محيطه من أحداث ، ويوطّن نفسه على قضاء اللّه وقدره ، فالمصيبة التي تصيبه في حاضره ، قد تتحول إلى بَرَكة ، والقرآن الكريم يُنمّي هذا الاحساس في نفس المؤمن قال تعالى:(وعَسى أن تكرهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكُم وعسى أن تُحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكُم واللّه يعلمُ وأنتم لا تعلمونَ) .

أساليب العقيدة في مواجهة المصائب :

تخفف العقيدة في نفوس معتنقيها من الضغوط والأزمات النفسية التي يتعرضون لها ، فتصبح ضعيفة الأثر والأهمية ، ضمن أساليب عديدة ، منها :

أ ـ بيان طبيعة الحياة الدنيا التي يعيش فيها الإنسان : وهذه المعرفة سوف تظهر بصماتها واضحة في وعيه وسلوكه ، فالعقيدة من خلال مصادرها المعرفية تبين طبيعة الدنيا وتدعوا إلى الزهد فيها يقول الشيخ الديلمي : ما عبر أحد عن الدنيا كما عبر أمير المؤمنين عليه‌السلام بقوله :دارٌ بالبلاءِ محفوفة ، وبالغدر معروفة ، لا تدوم أحوالها ، ولا تسلم نزالها ، أحوالها مختلفة ، وتارات متصرفة ، والعيش فيها مذموم ، والأمان فيها معدوم ، إنّما أهلها فيها أغراض مستهدفة ، ترميهم بسهامها ، وتفنيهم بحمامها » وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الادراك العميق للدنيا إلى حذر شديد منها ، ويكفينا الاستدلال على ذلك : سأل معاوية ضرار بن ضمرة الشيباني عن أمير المؤمنين علي ، فقال : أشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وهو قائم في محرابه ، قابض على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا! يا دنيا!! إليك عني ، أبيَّ تعرّضتِ؟! أم إليَّ تشوّقتِ؟!

لا حان حينك ، هيهات غرّي غيري ، لا حاجة لي فيك ، قد طلّقتك ثلاثاً ، لا رجعة فيها ، فعيشك قصير ، وخطرك يسير ، وأملك حقير ، آه من قلّة الزّاد ، وطول الطريق ، وبعد السفر ، وعظيم المورد ومن جملة تلك الشواهد ، نجد أنّ العقيدة تكشف طبيعة الدنيا وعاقبة من ينخدع بها أو يركن اليها ، وتبين قصور رؤية من ينشد الراحة التامة فيها .

ب ـ إنّ المصائب تستتبع أجراً وثواباً : الأمر الذي يخفف من وقع المصائب على الإنسان ، فيواجهها بقلب صامد ، ونفس مطمئنة إلى ثواب اللّه ورحمته ، فلا تترك في نفسه أثراً أكثر مما تتركه فقاعة على سطح الماء.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : المصائب مفاتيح الأجر وكتب رجلٌ إلى أبي جعفر عليهالسلام يشكو إليه مصابه بولده ، فكتب إليه : أما علمت أنّ اللّه يختار من مال المؤمن ومن ولده ونفسه ليأجره على ذلك .

جـ ـ لفت نظر المسلم إلى المصيبة العظمى : وهي مصيبته في دينه ، مما يهوّن ويصغّر في نفسه المصائب الدنيوية الصغيرة ، وهي حالة امتصاص بارعة للضغوط النفسية تقوم بها العقيدة.

ثانيا : تحرير النفس من المخاوف : لاشكَّ، أنّ الخوف يبدد نشاط الفرد ، ويُشل طاقته الفكرية والجسمية ، وكان الإنسانُ الجاهلي في خوف دائم من أخيه الإنسان ودسائسه ، ومن الطبيعة المحيطة به

وكوارثها ، ومن الموت الذي لا سبيل له إلى دفعه ، ومن الفقر والجدب ، ومن المرض وما يرافقه من آلام ، وتخفف العقيدة من وطأة الاحساس بتلك المخاوف التي تشلُّ طاقة الإنسان عن الحركة والانتاج ، وتجعله غرضاً للهموم والهواجس.

الموت : ينبّه القرآن الكريم إلى حقيقة أزلية ، على الإنسان أن يوطّن نفسه عليها ، وهي : (كلُّ نفسٍ ذائقةٌ الموتِ) وعليه فلا بدَّ مما ليس منه بد ، والموت لا بدَّ أن يدرك الحي يوما ما ، كما أدرك مَنْ قبله ، وهو شيء لا عاصم منه قال تعالى :(أينما تكُونوا يُدرككُم الموتُ ولو كُنتُم في بُروجٍ مشيَّدة) وقال : (قلْ لَّن ينفعكُم الفرارُ إن فررتُم من الموتِ) فالقرآن يؤكد أنّ الموت لا بدَّ منه ، ثم أنّه أمرٌ منوط بإذن اللّه تعالى وليس بيد غيره ، وهذه حقيقة لها انعكاسات إيحائية على نفس الإنسان ، بأنَّ أي قوة أرضية أو سماوية لا تستطيع مهما أوتيت من قوة أن تسلب الحياة عن الإنسان قال تعالى : (ما كان لنفسٍ أن تموتَ إلاَّ بإذن اللّه كتابا مُؤجَّلاً) ولقد بيّن القرآن الكريم زيفَ مزاعم اليهود الذين كانوا مع حرصهم الشديد على الحياة يتصورون أنهم أولياء اللّه دون غيرهم ، فكشف زيف مزاعمهم بهذا التحدّي الذي يخاطب دفائن النفوس ، ذلك أنَّ المؤمن باللّه حقاً لا يخشى الموت إذا حلَّ بساحته ، فالموت هو

انتقال من دار فانية إلى دار باقية واليهود بما يمتازون به من نزعة مادية طاغية ، يخشون الموت ويتشبثون بالحياة ، ومن هنا واجههم القرآن الكريم بهذا التحدي البليغ قال تعالى : (قُل يأيُّها الَّذين هادُوآ إن زعمتم أنّكُم أولياءُ للّه من دُونِ النّاسِ فتَمنَّوا الموتَ إن كنتم صادقين * ولا يتمنَّونه أبدا بما قدَّمت أيديهم واللّه عليمٌ بالظالمين) .

المثير في الأمر أنّ العقيدة في الوقت الذي تخفف من خوف الإنسان من الموت ، تصوّر الموت للمؤمن كأنه تحفة! ينبغي الإقدام عليه ، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « تحفة المؤمن الموت » وإنّما قال هذا لأنَّ الدنيا سجن المؤمن ، إذ لا يزال فيها في عناء من رياضة نفسه ومقاساة شهواته ومدافعة الشيطان ، فالموت إطلاق له من العذاب ، والإطلاق تحفة في حقّه لما يصل إليه من النعيم الدائم هكذا تقدم العقيدة إشعاعا من الأمن يخفف من وطأة الموت ، فإنّه للمؤمن تحفة وراحة قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : شيئان يكرهما ابن آدم : يكره الموت فالموت راحة للمؤمن من الفتنة ، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب .

الرّزق مضمون لطالبه : هناك خوف ينتاب الإنسان ، وينغّص عليه حياته ، وهو الخوف من الفقر ، لكن العقيدة تبدد هذا الخوف من خلال

التأكيد على حقيقة واضحة كالشمس في رابعة النهار ، وهي أنّ مقادير الرزق بيد اللّه تعالى ، وقد ضمنها لعباده ،وعليه فلا مبرّر لهذه المخاوف ، ومن يقرأ القرآن يجد آيات كثيرة ، تحثّ على إزالة أسباب الخوف من الفقر التي أدّت بالجاهلي إلى قتل أبنائه قال تعالى :(إنَّ اللّه هوَ الرّزَّاقُ ذو القوّةِ المتينُ) .

ثالثا : معرفة النفس

من معطيات العقيدة ، أنها تدفع المسلم إلى معرفة نفسه ، فلا يمكن السمو بالنفس دون معرفة طبيعتها .

دور العقيدة في تعريف الإنسان بنفسه :

لا شكّ أنّ العقيدة قامت بدور كبير في الكشف عن طبيعة النفس ، وشخّصت بدّقة متناهية أمراضها والآثار الناجمة عنها فالقرآن الكريم يقرُّ صراحة بأنّ النفس أمارة بالسوء :(وما أُبرّئُ نفسي إنَّ النفسَ لأمَّارةٌ بالسُّوءِ إلاَّ ما رحمَ ربي) كما يقرُّ بأنّ النفس شحيحة قال تعالى : (وأُحضرتِ الأنفسُ الشُّحّ)، وقال :(من يُوقَ شُحَّ نفسهِ فأُولئكَ هُمُ المُفلحُون) وهناك طائفة من الأحاديث تسلط الضوء على طبيعة النفس ، وتقدّم الرؤية العلاجية لأمراضها .

رابعا : السيطرة على النفس

منهج العقيدة في تربية النَّفس ، أنّها تدعو إلى عدم كبت رغباتها لأنّ الكبت يقتُل حيويتها ، ويُبدد طاقتها ، فلا تعمل ولا تنتج ، وفي الوقت ذاته لا تشجع على إطلاق رغباتها بلا ضوابط ، بل تحثُّ على اتّباع سياسة حكيمة معها وعملية السيطرة على النفس تتحقق من خلال ضبط رغباتها وتوجيه نزواتها نحو الاعتدال ، وتتحقق أيضاً من خلال محاسبتها والعقيدة لا تحبذ اتّباع الوسائل الملتوية من أجل السيطرة على النفس ، فعن طلحة قال : انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرّغ في الرمضاء ، وكان يقول لنفسه : ذوقي ، وعذاب جهنّم أشد حرّا ، أجيفة باللّيل بطّالة بالنّهار؟!.

قال : فبينا هو كذلك إذ أبصره النبيَّ صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة فأتاه ، فقال : غلبتني نفسي ، فقال له النبيَّ صلى الله عليه وسلم : ألم يكن لك بدٌّ من الذي صنعته؟ من هذا التوجه النبوي ، نجد أنّه في الوقت الذي تشجّع فيه العقيدة كلّ محاولة صادقة من الإنسان للسيطرة على نفسه ، نجد أيضاً أنّها لا تُحبّذ اتّباع الأساليب غير المعقولة للسيطرة على النفس ، فالنفس تحتاج إلى صبر وسياسة طويلة ورياضة خاصة لتقلع عن ضراوة عاداتها .

البناء الأخلاقي

العقيدة تشكّل مرتكزاً متيناً للأخلاق ، لأنّها تخلق الواعز النفسي عند الإنسان للتمسك بالقيم الأخلاقية السامية ، على عكس العقائد الوضعية التي تساير شهوات الإنسان ، وتنمّي بذور الأنانية المغروسة في نفسه والأخلاق تحظى بأهمية استثنائية في العقيدة الإسلامية ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم :بُعثتُ لاتُمّم مكارم الأخلاق وقال صلى الله عليه وسلم الخُلق الحسن نصف الدين ، وقيل له : ما أفضل ما أعطى المرئ المسلم؟ قال : الخُلق الحسن .

والإسلام يربط بين الدين الحق والأخلاق ، مثل هذه الرؤية تتضح خطوطها في أنّ الدين يحثُّ على الأخلاق الحسنة ويقوم بتهذيب الطباع ويجعل ذلك تكليفاً في عنق الفرد يستتبع الثواب أو العقاب ، وعليه فلم يقدّم الدين توجهاته الأخلاقية المثالية بصورة مجردة ، وإنّما جعل الأخلاق نصف الدين ، لأن الدين اعتقاد وسلوك والأخلاق تمثل الجانب السلوكي للفرد.